سعاد الحمودي

إضاءات حول لغتنا العربية

إصدارات دائرة الثقافة، حكومة الشارقة 2024م

الفهـرس

رسالة عرفان لخلودها المتسامي 3
1 ـ اللغة أصل البيان 4
2 ـ انحسار اللغة في عصر العولمة 7
3 ـ أشرقي يا لغة الضاد 10
4 ـ موسيقى اللغة..... 13
5 ـ تأثير القرآن الكريم على اللغة العربية..... 16
6 ـ اللغة العربية بين الأمس واليوم 19
7 ـ جمال اللغة العربية 22

رسالة عرفان لخلودها المتسامي

لأنك أنت من استطاع أن يعبر عن مكنونات صدري، لأنك أنت من جعل الكلمات تنصاع لأمري، لأنك أنت من أعطاني أفقاً لم أحلم به من قبل، لأنك أنت من أزاح عن قلبي سرّه الغامض، ولأن عذوبتك فاقت الماء الزلال، وهدير صوتك جعل للمعنى عمقاً وخيالاً، فكم وكم من حاجات لم يحققها لي الكتمان؟ فبحت لي بها، وعرفت كيف أرسل لحاجاتي بريداً وعنواناً.

قدّر لي أن أعيش معك، أن أحقق أمنياتي عبرك، سري بحت به إليك، فهل من الممكن أن تبوحي بسرك لي؟، أعرف أنه من الصعب أن تبوحي بسرك، فهل للصفاء والنقاء والجمال والشمول والاتساع سر يباح؟ أرى أن لسرك ألف سر وسر، أشكرك من كل قلبي.

المعجبة بك إلى الأبد..

أسطّرُ هذه الرسالة للخلود الذي بدا محياه ساطعاً في لغتنا العربية لغة الضاد، اللغة التي كانت ولازالت تنبض بخلودها المقتبس من الفصاحة والبيان، المشعة في حروفها وكلماتها وجملها، فكأنها كيان نابض جاء من عبق الماضي ووضوحه وبيانه، لغة الضاد التي تفردت وأعطت، واختارها الله رسالةً خالدةً إلى يوم القيامة بحروف القرآن، والذي يوازي قراءة كل حرف منه 100حسنة، فلنا أن نتخيل نورانية تلك الحروف المباركة، ولقد أُعجب من بديع بيان اللغة العربية فطاحلة العرب في الماضي، وأقاموا لذلك أسواقاً يتبارى فيها الشعراء في رواية أجمل الأشعار الجزلة، بقوةٍ وطلاقةٍ ويعبرون عن مكنونات ما وقر في صدورهم ووجدانهم بأحسن الألفاظ والعبارات الموزونة المقفاة، والمقرونة بالفصاحة والبيان والتشبيهات البديعة، التي تقرّب المعنى من ذهن القارئ، ليحفظه من سماعه الأول له، وإنما يكون هذا لبيان ما أفصح عنه شعراء ذلك الزمان، زمان بهاء ونقاء اللغة، والوصول إلى عنفوان اللغة وقوتها ونقائها من كل لحن يبعد عن معناها القريب.

-1-

اللغـة أصـل البيـان

إنها لغة القرآن والبيان والتبيان، شملت في طياتها جميع المصطلحات، والمفردات، وأحاطت بها، وعبرت عنها بإتقان ووضوح ماثل للعيان، واللغة العربية في مرونتها المعهودة كان لها تاريخ ضارب في القدم بل تعتبر من أقدم اللغات، كما أن لغة أهل الجنة هي اللغة العربية، وهو ما يجعلنا نتساءل عن سبب اختيار هذه اللغة للتخاطب في الجنة، ليتكشف لنا ونحن نغوص في عوالم العربية؛ مدى عظمة العربية وحسن بيانها وفصاحتها وجودة أخيلتها وصورها، لذلك ظلت لغة تنبض بالحياة، وتعايشت مع جميع العصور والأزمان، وكانت رافداً لمحبيها في الفكر والأدب، ففي الشعر مثلاً قدّمت العديد من المعاني والأغراض الفنية، فعبرت عن الغزل والمدح والذم والرثاء، وكان جمال الشعر ماثلاً باستخدامه للقافية في بحور الشعر، و إدخال المحسنات البديعية واللفظية، فالمستمع لشعر المعلقات والتي مثلت سنام الشعر وأجوده وأشهره على الإطلاق، يصبح القارئ في عالم آخر، فالأذن تستمع لجزالة الحروف وتعبيرها الرائع عن المعنى باللفظ المناسب الأقرب للفهم، كأنها أجراس ترن بشكل رقراق، أو كأنها أمواج تتهادى على شاطئ المعنى القريب، أو ربما نصفُها بزقزقةٍ لعصافير تهزج بأجمل ما يمكن سماعه من المعاني والألفاظ، فتطرب أذن المستمع لها، ويطير في عالم اللغة الواسع الذي لا يعرف له نهاية أو قرار.

ويُجمع علماء البلاغة العربية على أن أساليب البيان في اللغة العربية ترجع كلها إلى التشبيه، ولو قال قائل إنه أكثر كلامهم، لصدق، لأنه على حد تعبير المبرد في الكامل: "كأنه باب لا آخر له"، ولعل الشعر العربي من أكثر الأمثلة الدالة على ذلك، وسنذكر في سياق الفصاحة والبيان بيتاً شعرياً مشهوراً، اتسم بالجمال والسحر والتشبيهات المقتبسة من الاستعارة التصريحية، التي تتفنن في إخفاء المشبّه وإظهار المشبّه به بأروع الصور وأرق العبارات التي تُلبس المعنى جمالاً وروعة وبياناً، ولقد اختُلف في نسبة هذا البيت هل هو للوأواء الدمشقي(محمد بن أحمد الغساني وهو من شعراء سيف الدولة) أم ليزيد بن معاوية؛ وإن يكن فإن في هذا البيت سحراً وجمالاً يزداد إشراقاً في سياق القصيدة، فالشاعر يقول فيه:

فأمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت

ورداً وعضّت على العُنّاب بالبرَد

وبشرح البيت، نجد أن المحبوبة الفاتنة التي شبّه الشاعر عينيها بالنرجس الأبيض في جمالها ورونقها، تنزل دمعاً كأنه اللؤلؤ في قيمته العالية وتلألئه الوهاج، فيسقي الدمع خداً كالورد في حمرته، وأثناء تساقط الدمع، ومن شدة لوعة المحبوبة، تعضّ شفتها السفلية ذات اللون الأحمر كالعناب، بأسنانها التي تشبه البرد الصافي الناصع البياض، وقد أشار الشاعر بشيء من التورية إلى كثرة نزول الدمع باستخدام كلمة أمطرت، ونجد أن الشاعر أوجد في أبياته خمس تشبيهات، حيث أنه استعار اللؤلؤ والنرجس والعناب والبرد، هذه العناصر التي اجتمع فيها الجمال والتألق الموشح بالألوان النقية البيضاء والحمراء المبهجة، فأي جمال حازته محبوبته في عينيها ودمعها ووجنتيها وشفتيها وأسنانها، فهو يصف جمالاً وسحراً لا يجارى ولا يبارى، وقد قيل إن السبق لهذه الأبيات كان لأبي نواس وقد اقتبست من قوله في بيته الشعري:

تبكي فتذري الطل من نرجس

وتمسح الورد بعناب

فنجد أن بيت أبي نواس في تشبيهاته الأربعة، أو على الأصح استعاراته، هو نفسه الذي اقتُبِس منه البيت الشعري السابق الذي تحدثنا عنه، والذي جمع خمس تشبيهات، الأمر الذي لا نجده في الشعر العربي، وكانت زيادة التشبيه عن اللفظ لاتساع الوزن.

وهذا البيت على شاعريته وعذوبته، اختُلِف في تقييمه ونقده كما اختُلِف في نسبته، ويبقى البيت أعجوبة في جمعه لخمس تشبيهات في بيت واحد، ووصفه الذي يفوق الوصف في الرقة والعذوبة، حيث يذكر عباس محمود العقاد، أن الوصف فيه سائغ ويخلص إلى الذهن في ثوب شفاف، ويرى في سياق القصيدة ككل، أن لا لفظة مزوقة تستوقفك، ولا تعطلك نكتة فارغة، كما نجد في أقوال البديعيين في مثل ذلك البيت المشهور الذي ذكرناه سابقاً.

وبذكرنا لفصاحة اللغة وبيانها، فإننا نشير إلى أن العصر الإسلامي؛ هو العصر الذهبي للغة العربية، حيث ساهم في نشر اللغة العربية بشكل كبير؛ بفصاحة وبلاغة القرآن الكريم التي أظهرت معها علوم ضبط اللغة العربية للداخلين في الإسلام، فنجد أن من يرغب في الدخول إلى الإسلام يُقبِل على تعلّم اللغة العربية وعلومها، لضبط لسانه للنطق بفصاحة وبيان القرآن

الكريم، كما أن أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام كانت بلغة عربية فصحى، ونعرف أن الأحاديث النبوية تقوم بإرشادنا إلى الفهم التفصيلي لتعاليم الإسلام، و يساهم الحديث أيضاً في فهم بعض آيات القرآن وتوضيحها، فالقرآن الكريم جاء باللغة العربية، وكان معجزة الرسول صلى الله عليه وسلّم الخالدة على مر التاريخ، محفوظ بحفظ الله عز وجل له على مر العصور، وبه حفظت لغته المباركة اللغة العربية، وقد تعجب فصحاء وبلغاء قريش من بلاغة القرآن وفصاحته التي فاقت بلاغتهم وفصاحتهم، وأذعنوا في قرارة أنفسهم أنه كلام الخالق الحق الذي جاءهم بلسان عربي مبين.

-2-

انحسار اللغة في عصر العولمة

لعل من أهم العوائق التي دعت إلى انحسار تعلم اللغة العربية والعزوف عنها؛ البحوث العلمية الحديثة، التي استخدمت لغات أخرى لنشر نتائجها، ما جعل انتشار العربية، يقل في ثقافات العالم الأخرى، كما أن التقدم التكنولوجي الحديث اعتمد بشكل أساسي على اللغة الإنجليزية في تأسيس تطبيقاته، ومن ثم قلّ الاهتمام باللغة العربية في هذا المجال، وزاد الإقبال على تعلم اللغة الإنجليزية، فغزت المصطلحات الأجنبية البديلة لسان الناطقين بالفصحى، وأصبح المصطلح الأجنبي يُحشر تكلفاً وسط الكلام العربي، وهو ما يجعلنا نسلّط الضوء على ضعف الوعي بين الشباب العربي بأهمية لغتهم، وقدرتها على الإتيان بمضامين جميع العلوم بمفرداتها الغنية، فهي غنية مرنة قادرة على التكيف والتحور، وفق ما يقتضيه العصر من متطلبات، وذلك بمفرداتها ومصطلحاتها الجزلة الكاملة، كيف لا؟، وهي التي تحدى بها الله الكفار بأن يأتوا بجزء من آية من آيات القرآن العربي المبين، وهم أصل العرب وأكثرهم فهماً وإدراكاً للغة، ونستطيع أن نعتبرها وفقاً لما سبق لغة التحدي الأولى التي بدأت ولازالت من أغنى لغات العالم بخصائصها الصوتية والجمالية، وبقيت اللغة العربية الفصحى مرجعاً للتحاور بين جميع العرب، كما أنَّ انتشار اللهجات لم يؤثر على فصاحة اللغة العربية النقية، فهي كما هي منذ ظهورها الأول، وبقيت اللغة العربية لغة مؤثرة أثرت على العديد من اللغات منها اللغة التركية والفارسية والإسبانية والأوردية وغيرها..

ولكننا نجد في زمننا الحالي بعض العرب يتنكر لفضل اللغة العربية ويطعّمها تكراراً بألفاظ أجنبية، في أغلبها مقحمة على لغتنا العربية ولا تدل على المعنى المستهدف، أو لا تمتّ بصلة إليه، ولكن يُدخلها بعض العرب تفاخراً وزهواً مدّعين اكتساب لغة أجنبية جديدة، متنكرين بذلك للغتهم الأصلية لغة الأصالة والعراقة اللغة العربية. إن هؤلاء المتفاخرين باللغة الأجنبية الجديدة يفتقرون لقدر وافر من مصطلحات لغتهم الجديدة التي تعلموها، لذا لا يستطيعون استخدام اللغة الأجنبية كبديل كلي للغتهم العربية، وفي الوقت نفسه عجزوا عن الإحاطة بلغتهم الأم وهويتهم الأساسية، وللأسف انتشرت بهذا ظاهرة إدخال وإقحام الألفاظ الأجنبية مع الكلام العربي، ظناً

بأنها قد تساعد في توضيح المفردة العربية التي باتت غريبة على أهلها، و ذلك لغربة العرب عن لغتهم الأم اللغة العربية، والتي هي من أكثر اللغات فصاحة وقادرة على إيصال أغراض المتكلم بشكل كافي ووافي وأعم وبطريقة دقيقة، فهي كما ذكرنا لغة الفصاحة والبلاغة الغنية بالمفردات والتشبيهات، ومؤخراً وصلت ظاهرة إقحام الألفاظ الأجنبية في اللغة العربية إلى مستوى التأليف والترجمة، بعد أن كان ذلك قاصراً فقط على الاستخدام الشفهي، وفي حدود المحادثات العادية، و نرى أن هذه الظاهرة، غزت العديد من الأعمال الأدبية والمؤلفات العلمية والقصص والصحف، واستبدلت العديد من الكلمات العربية الفصيحة بألفاظ أجنبية.

ولا يخفى علينا أن الاختلاط بالأجانب وتأثير الغزو الأجنبي للبلدان العربية جغرافياً وفكرياً وثقافياً، ومحاولتهم فرض لغتهم، وزعزعة اللغة العربية، وخلق جيل جديد يحتفي بلغة الأجانب، كل هذا أحدث لحناً جلياً في فصاحة اللغة العربية، فظهرت لغة مزدوجة بين العربية والأجنبية ما يعرف بالعامية، وقد أشار العالم اللغوي و الأكاديمي البريطاني ديفيد كرستال في كتابه (موت اللغة) إلى ظهور الازدواجية اللغوية كنتيجة للاندماج الثقافي ما بين الأمم والشعوب، وعدد تسعة شروط لموت اللغة تنطبق جميعها على اللغة العربية في وضعها الراهن.

بهذا نجد أن اللغة العربية التي كانت في أوج مجدها وعزها وانتشارها المشع في مختلف البقاع والميادين، عانت انحساراً وتراجعاً، وخف بريقها لدى أهلها وقل افتخارهم بها، وبالتحديد بدأ هذا التداعي يظهر منذ سقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد المغول، وما تلا ذلك من فترة حكم العثمانيين للوطن العربي، حيث اقتصرت اللغة في العهد العثماني على علوم الدين دون دخولها إلى باقي مجالات العلوم المختلفة، وظل هذا الانحسار والتداعي والاقتصار مستمراً إلى يومنا هذا، فكون اللغة هي الحامل الأول لاتصال البشر والربط بين الأفراد بعضهم ببعض، كان لابد أن تولي المؤسسات والبرامج السياسية للسلطات دوراً أكبر للتصدي لمسالة غياب الوعي الثقافي للغة، فانحسار اللغة في العصر الراهن ليس نابعاً من أصل اللغة، فاللغة العربية كما هو معروف في رقيها وبيانها وقوتها غنية عن التعريف أو التوصيف، وهي في ذاتها أرقى من أن تكون في حالة انحسار، ولكن يعد السبب الأول في موجات الانحسار تلك؛ غياب الوعي وضعف النفوس، والاستهانة بالدفاع عن اللغة، ليكون الانحسار في المقام الأول ناتج عن أسباب اجتماعية عززتها البرامج السياسية التي فرّطت في نشر اللغة ودعمها .

وقد تكون هذه الأسباب مجتمعة سبباً لقلة الاهتمام باللغة العربية، ولعل من أهم الوسائل المتبعة لتقليل انحسار اللغة في عالمنا العربي؛ أن يُدرجَ ضمن المناهج الدراسية برنامجٌ توعويٌ كافي

يبرز عظمة اللغة وتأثيرها العميق، ليتم غرس الوفاء للغة القرآن، ويفتخر أبناؤها بها قبل غيرها من اللغات، وتتم توعيتهم بجمال اللغة العربية وعظمتها وجزالتها وتاريخها المزدهر الذي بدأ كذلك، وسيبقى ببقاء كتاب الله الذي أنزله الله بلسان عربي مبين، ولنا هنا أن ندرك أن اللغة العربية لغة الشمول والكمال، فكيف لاتسع علوم الدنيا وقد وسعت كتاب الله لفظاً وغاية؟، وملأت صفحاته المنيرة المباركة بكامل الوضوح والبيان، فأصبحت برهاناً ودليلاً قاطعاً للحق.

وقد قال الله تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيء)، ومنه نقتبس أن لغة القرآن هي لغة الشمول والاتساع لكل ما يمكن أن تفصح عنه.

-3-

أشرقي يا لغة الضاد

مع القرآن الكريم الذي جاء بنور الهداية، وأشرق بلغة الضاد بكلماته الحكيمة التي عبرت الزمان وحُفظت بحفظ الله له، تشرق اللغة العربية وتمتد بنورها الوهّاج محلّقة على آفاق الزمان والمكان، فديمومة اللغة العربية إنما جاءت بحفظ الله لها، فباتت اللغة العربية لغة النور والهداية التي اختارها الله عزّ وجلّ لتحوي مفردات ومعاني القرآن الكريم، وهو القرآن الذي يتلى آناء الليل وأطراف النهار بلغتنا العربية، ووصفه الله عزّ وجلّ بأنه جاء بلسان عربي مبين، فليس أوضح ولا أفصح من لغتنا العربية التي حوت العديد من الألفاظ والمعاني، والمشتقات، ولم تحتر في التعبير، فتلك اللغة المباركة لم تدع من ريب أو إبهام لما أرادت قوله، فهي لغة فريدة عريقة بعراقة تاريخها الأول وأعجزت منذ الوهلة الأولى، وهي اللغة الأقدم والأعرق، والأصل الأصيل لكل ما تلاها من لغات، لأنها تكاملت وحوت وتفردت، وكانت لغة القرآن والبيان، تبحر في سطحه الظاهر القريب، وتغوص في أعماقه وأغواره البعيدة، وبهذا نكتشف أسرار اللغة في كل لحظة وحين، هذه اللغة التي حوت العديد من الأسرار، قد لا تسحر بيانها الخلّاب إلا من وعاها وفهم كنهها ودلالاتها، فالأذن العربية الفصيحة التي لم تلوّث بلهجات العصر ولحنه، تعي وتفقه ما تريده اللغة العربية منها، فنرى مثلاً سادات قريش يتعجبون وتسحرهم اللغة بفصاحتها، بل يخافون من سحر بيانها حتى أنهم يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يتأثروا بسماع كلمات القرآن الذي جاء بلغتهم، وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان.

ولكن في زمننا الحالي قلّ من يتدبر كلماتها، أو يتأثّر بسماع الذكر الحكيم، للهوّة السحيقة بين اللغة والناطقين بها، فإشراق اللغة العربية كامن في كونها لغة الهوية ورمز العروبة، و وعاء الثقافة، وهي ترسم بإشراقتها على سمائنا إشراقة مستقبل حر واعد، لا تقطّعه الحدود، فيجعل الوطن العربي موحداً، ولا يكون ذلك إلا بأن نجعل من تلك اللغة الجميلة أداة للحوار والتفاعل والتخاطب وتبادل المعرفة، فنعود للأصل الفصيح الميسور، ونترك العامية التي فرقتنا وشتت هويتنا، ونركز على لغتنا العربية المتوسطة التي جمعت بين الاختصار البعيد عن الخطأ، والإطناب الذي لا يجرّ إلى الملل، وليكن ديدننا أن نوصل المعنى القريب إلى الذهن بأقل عدد

من الكلمات ونطبق هذه المهارة في المناقشات الدراسية والعامة بل وفي حياتنا اليومية ولنتمثل في نهجنا الجديد؛ نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي أوصل بالأحاديث النبوية الشريفة رسالة السماء الخالدة وذلك بالجمل القصيرة الواضحة لكل من يستمع إليها، ففي الحديث الشريف: عن أبي عبد الله النعمان بن بشير-رضي الله عنهما- قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنَّ الحلال بيِّنٌ، وإنَّ الحرام بيِّنٌ، وبينهما أمور مُشتبهات لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس، فمَن اتَّقى الشُّبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومَن وقع في الشُّبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يُوشك أن يرتع فيه، ألا وإنَّ لكل ملكٍ حمى، ألا وإنَّ حمى الله محارمه، ألا وإنَّ في الجسد مُضغة إذا صلحت صلح الجسدُ كله، وإذا فسدت فسد الجسدُ كله، ألا وهي القلب) رواه البخاري ومسلم.

وقد جاء في ثنايا الحديث تشبيه، يعطي صورة وتقريباً جلياً للمعنى المراد، حيث شبه فيه الوقوع في الشبهات المقترب من الحرام المحض؛ بمن يرعى حول حمى مُحرّم، ولله سبحانه وتعالى حمى، وحماه المحرمات والحدود، وكل من رعى حول الحمى لابد أن يدخل فيه، وهو كالراعي الذي ابتعد بغنمه عن وسط المرعى، واقترب من الحدود التي تفصله عن مرعى الغير، وفي هذا المشهد الذي يدعو للحذر والريبة، وهو مشهد القرب من حافة الوقوع في حمى الغير، توشك الغنم في حركتها العشوائية أن تقتحم الحمى المجاور، لأنها تجول وتدور في تلك الحدود المقتربة من مرعى الغير، ومبتعدة عن المرعى الذي خصص لها، وهو مثل قريب وواضح لمن يبتعد عن الحلال الذي أحلّه الله له، ويقترب من الحدود التي تفصله عن الحرام فيعرِّض نفسه بالقرب منها لخطر الوقوع فيها، وهو تشبيه يمثّل فيه الحديث لمعنى (الوقوع في الشبهة) بمثال (حدود المرعى) لتقريب هذا المعنى من الأذهان، ومعناه أن يترك الإنسان ما يريبه إلى مالا يريبه، فقد حوى الحديث تشبيهاً وإيجازاً وبياناً، يختصر على المتكلم الحاجة إلى الشرح والتفصيل ويدفع المعنى بسلاسة ويسر إلى ذهن المخاطب بوضوح تام، وهو من جوامع الكلم الذي يعطي تقريباً أكثر لما يريده القائل من كلامه، وما يوصله للمستمع، وقد قال الله تعالى في محكم آياته (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى)، فالبلاغة التي برزت في منطق النبي صلى الله عليه وسلم، هي من أهم أسباب عظمته، فالحكمة والنور تنبثق من حروف الأحاديث الشريفة، وفي الحديث (وأوتيت جوامع الكلم) كما قال صلى الله عليه وسلم (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش).

وإن هذا ليس فخراً، وإنما تقرير لحقيقة ثابتة لا تتزعزع، فنجد أن كل كلمة تقال في سياق الأحاديث الشريفة تحمل العديد من المعاني والإرشادات، وتشعّ بالنور والجمال والبيان، فهي

سريعة الوصول للذهن، وسهلة في الفهم وغزيرة في العلم فكلامه صلى الله عليه وسلم قليل نافع موجز الألفاظ، ومعتدل الوزن، وسهل سلس للأسماع، فقد أوتي جوامع الكلم، وعُلِّمَ من الله عز وجلّ مالم يعلم.

وقد اشتملت الأحاديث الشريفة على الأساليب البلاغية البديعة في قوله صلى الله عليه وسلم: "الناس كأسنان المشط" وقوله: (الناس معادن)، والعديد من الأحاديث النبوية، حوت في ثناياها الحكمة والنور والجمال، فكلامه صلى الله عليه وسلم ناصع البيان، وفي الحديث عن بلاغة الرسول عليه الصلاة والسلام، يطول الكلام ويجول، ولكننا نومئ ببصيص الإشارة لكل راشد لبيب.

إن أسرار البلاغية التي تحيط بالأحاديث الشريفة، والتي تفصح عن بلاغة الرسول عليه الصلاة والسلام وتنبئ عن منبعها الأول، والتي نهلَ بداياتها الأولى في بني سعد بن بكر، ثم زكاها الوحي في سن الشباب حين علمه الله مالم يعلم، كلها تبدوا جلية في منطقه وكلامه صلى الله عليه وسلم، ولعل ما تحدث عنه الجاحظ يعطي بعضاً من الإيضاح للوصول لوصف بلاغة الرسول الكريم، عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم، حيث قال: (هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه وجلَّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف، استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورَغِبَ عن الهجين السُّوقي، فلم ينطق عن ميراث حكمه، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشُدَّ بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبَّة عليه وغشاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حُسن الإفهام وقلّة عدد الكلام. وهو مع استغنائه عن إعادته، وقلّة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولازلّت له قدم، ولا بارت له حُجَّة، ولم يقم له خَصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبدُّ الخُطب الطوال بالكلام القَصير، ولا يلتمس لإسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجّ إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج -الفوز والظَّفر- إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب و لا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعمَّ نفعاً ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم).

ومن خلال هذا الوضوح الماثل للأحاديث النبوية التي جاءت باللغة العربية، ندرك أن اللغة العربية حين تشعّ في حياتنا نبدأ معها رحلة جديدة بإتقان اللغة وفهم حقائق جديدة نكتشفها كل يوم، ونسافر معها في الرقي والتقدم والصفاء والإدراك والوعي الذي يزيد في العقل، وينعش الملكات المندثرة في غبار اللحن والعامية.

-4-

موسيقى اللغة

إن للغة العربية موسيقى يتغنى بها خطّها، وصوتياتها وتشكيلها، فهي لغة هرمونية جمعت الجمال بأنواعه المتداخلة والمتباينة، وكأنها أُوركسترا تتكامل فيها اللغة لتعطي أعذب الألفاظ وأرق المعاني، مقطوعة نثرية أو شعرية تحلّق في سماء محبيها بحروفها ومعانيها إلى آفاق الفكر، وفصاحة البيان، أُسلوبها السردي أو الشعري يحوي أدبيات شتى، فموسيقى اللغة تبدو في تناسب نبيل بين عناصرها الصوتية والبصرية، فالموسيقى البصرية تتجلى في كتابة الحروف التي تنتظم في إطار هندسي موسيقي يتعلق بالبعد الشفاهي للغة، وهذا البعد الشفاهي للحروف تتناوب فيه الحركة والسكون تناوباً جبرياً وأشبه ما يكون بتفعيلات الخليل بن أحمد الفراهيدي؛ من حيث الموسيقى الظاهرة في إطار هذا التناوب الشرطي بين الحركة والسكون، وهذه خاصية من خواص اللغات الإنسانية المختلفة بما في ذلك اللغة العربية، غير أن اللغة العربية في مقوماتها الفريدة تمتلك بعض الخواص المتفردة و بعض الميزات التي تتميز بها، فالهندسة البصرية على سبيل المثال قائمة على إمكانية الإمالة والتحوير وأنصاف الدوائر وما إلى ذلك، وبتالي يمكن كتابة الحرف العربي بكيفيات مختلفة، وهذه الكيفيات المختلفة هي التي ولّدت خطوطاً عربية متعددة بطبيعتها، وربما نجد أن البعد البصري يتداخل مع البعد الصوتي للغة، ونجد أن الخليل بن أحمد الفراهيدي أيضاً قام بدراسة تفصيلية لعالم الصوتيات، ولذا يعتبر هو أول عالم صوتيات عربي، ويعتبر القاموس الذي كتب فيه أول تصنيف للغة العربية، فقد أشار في دراسته إلى التداخل بين البعد البصري والصوتي للغة، الذي خلق خاصية جديدة، حيث أن ميزة الإمالة على وجه التحديد ليست قائمة فقط على البعد البصري، ولكن قائمة أيضاً على البعد الصوتي، ففي اللغة العربية هناك صوتيات قد لا تتوفر في قائمة الصوتيات للغات الإنسانية الأخرى، على سبيل المثال الإظهار الصوتي في الكتابة العربية؛ أي عدم كتابة الأبعاد الصوتية، وهذا أمر مشهود في إطار الساكن الذي يحتمل تسع متحركات هي أزمنة من جهة، وأصوات وإمالة من جهة أخرى.

ولعلنا نشير هنا إلى أن مكونات النظام الصوتي العربي هي الصوامت، ويقصد بها كل الأصوات

العربية فيما عدا (و، ي) أي 26 صوتاً ساكناً، و الصوائت عددها ستة، ثلاثة منها قصيرة وهي الفتحة والضمة والكسرة، وثلاث حركات طويلة وهي المد بالألف، والمد بالواو، والمد بالياء، كما أن هناك أشباه الصوائت (أنصاف العلل) وعددها اثنان وهما (ي، و)، أي أن اللغة تتألف من ثلاثة وأربعين صوتاً، ولذلك كانت اللغة عبارة عن أصوات، تتشكّل منها كلمات، تنتظم بشكل جميل وتؤدي معاني شتى، وعند دراسة علم الأصوات وطريقة نطقها، نتعرف على أعضاء النطق المسؤولة عن إنتاجها، وصفاتها الصوتية، ولنأخذ مثالاً على ذلك حرف الباء، فصوت الباء يعتبر صوتاً شفوياً ثنائياً، لأن الشفتين اشتركتا معاً في إنتاجه، ولم ينتج من شفة واحدة، كما أنه انفجاري، ذلك أن الهواء تعرّض للحبس والتراكم في تجويف الفم قبل النطق به، ثم خرج دفعة واحدة عند نطقه، ويعتبر أيضاً حرفاً مجهوراً؛ أي أن الوترين الصوتيين يهتزان عند النطق به، وهنا ندرك أن الأساس في الظاهرة اللغوية هو النطق، والعناية بالكلام المنطوق أولاً، حيث أن حدوث الصوت عند الإنسان يتم بمرور الهواء من الرئتين إلى الحنجرة التي فيها وتران صوتيان، وبمرور الهواء خلالهما يهتزان، ويتفرع الصوت خروجاً من الفم أو الأنف، وينتقل الصوت بعد ذلك على شكل موجات صوتية إلى أذن المستمع، ومخارج الصوت عند الإنسان تتضمن أربع مناطق الحلق واللسان والشفتان والجوف، ولكلٍ أصواته الخاصة التي تخرج منه.

ولعلنا نتطرق في خضم موسيقى اللغة إلى الدور المهم في تحقيق التوازن الموسيقي بين الجمل، وما تمثل في إبداع مصطلح المحاذاة، الذي لم يكن له صوت ولا أثر في التراث العربي، حيث تنقسم المحاذاة في اللغة العربية إلى ثلاثة أقسام: المحاذاة النحوية، والمحاذاة الصرفية، والمحاذاة الصوتية، والغرض منها تحقيق التوازن بين الجمل والإيماء إلى موسيقى وزن الكلام، ووقعه على أذن السامع بشكل فني وموسيقي مريح وسلس، فالمحاذاة تعتبر ظاهرة صوتية، صرفية، نحوية، ودلالية، وأول من استعملها هو اللغوي ابن فارس، فيعرفها بقوله: (معناها أن يُجعل كلام بحذاء كلام، فيُؤتى به على وزنه وإن كانا مختلفين) ومثال ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (أعيذكما بكلمات الله التامة، من شر كل سامة، ومن عين كل لامة)، فالسامة في الفعل الثلاثي سمَّت، واللامة من الفعل الرباعي ألمَّ، وكان القياس أن يقول: ملمّة، ولكن "لامة" كانت أقرب في الوزن للسامة، فجعلت على وزنها .

وقد سماها بعض اللغوين: المزاوجة أو الازدواج، وعلى رأسهم الفارابي، يقال: (أخذني من ذلك ما قَدُمَ وما حَدُثَ) وفي صحاح الجوهري يقال: (تَعسا له نَكسا) وإنما هو نُكسٌ بالضم

وفُتِحَ هنا للازدواج، وجاء في تاج العروس للزبيدي، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: (ارجعن مأزورات غير مأجورات) القياس: موزورات فإنه الازدواج، أي لما قابل الموزور بالمأجور، قلب الواو همزة ليُألف اللفظان ويزدوجا، وقد سمى الثعالبي هذه الظاهرة بالمجاورة وقال: (هذا حجر ضبّ حَرِب) بكسر كلمة حرِب، جاءت نعتاً للحجر، وسماها أيضاً في موضع آخر من كتابه حفظ التوازن، بقوله: (العرب تزيد وتحذف حفظاً للتوازن و إيثاراً له).

أما ابن جني فقد سماها الجوار، وتبعه في ذلك عدة لغويين من أمثال ابن هشام في مغني اللبيب، والسيوطي، أما علماء البلاغة والدراسات القرآنية فقد سموها بالمناسبة أي الإتيان بكلمات متزنات.

-5-

تأثير القرآن الكريم على اللغة العربية

القرآن الكريم جاء بلغة عربية اختارها الله عز وجل لكتابه الحكيم من بين كل اللغات، وذلك لما تمتاز به اللغة العربية من قدرة على إيصال المعنى المراد بوضوح وبيان، ولقد كان لهذا القرآن أشد الأثر في بقاء اللغة العربية وحفظها من الضياع، وإعطائها صفة القداسة والخلود، كما منحها صفة العلو والرقي الواصل إلى حد الكمال، وذلك بما طُرح في القرآن من أساليب عالية رفيعة في التراكيب والجمل، وبهذا تألقت اللغة العربية بمحاسن الجمال، ويقول في هذا العلامة الرفاعي إمام العربية رحمه الله: (نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معاً، فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه؛ إذ النور جملة واحدة، وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه عن طبيعته، وهو في كل جزء من أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبدلت الأرض غير الأرض، وإنما كان ذلك، لأنه صفى اللغة من أكدارها، وأجراها في ظاهره على بواطن أسرارها، فجاء بها في ماء الجمال أملأ من السحاب، وفي طراءة الخلق أجمل من الشباب، ثم هو بما تناول بها من المعاني الدقيقة التي أبرزها في جلال الإعجاز، وصورها بالحقيقة، وأنطقها بالمجاز، وما ركبها به المطاوعة في تقلب الأساليب، وتحويل التركيب إلى التراكيب، قد أظهرها مظهراً لا يقضي العجب منه لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصته، ولهذا بهتوا لها حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود، لأنها هي لغتهم التي يعرفونها ولكن في جزالة لم يمضغ لها شيح ولا قيصوم).

كما كان للقرآن الكريم الفضل الأعم في توحيد اللهجات العربية، حيث أنها كانت في تباينها تحوي الفصيح والأفصح، والرديء والمستكره، وقد نزل القرآن الكريم على سبعة أحرف من أجل التخفيف على العرب في قراءته وتلاوته، ولأن لغة قريش أسهل اللغات وأعذبها وأوضحها وأبينها، فقد قال الصحابي عثمان بن عفان رضي الله عنه للجنة الرباعية: (إذا اختلفتم أنتم فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلغتهم) فقد كانت قريش على علم بمعظم لغات العرب، وقد نقل السيوطي عن الواسطي: (إن كلام قريش سهل واضح وكلام العرب وحشي

غريب)، ولذا حاول العرب الاقتراب من لغة قريش، وما قام به القرآن؛ أن جمع العرب على لغة قريش وما يقاربها، ولهذا نجد العرب ليس بينهم ذلك التفاوت و الاختلاف في اللهجات كما كان قبل نزول القرآن، حيث أنه وحّد لغتهم وألسنتهم.

ولم يكن للغة العربية قبل نزول القرآن موقع بين الأمم، ولم يوجد سبب لتُقبل الأمم على تعلم لغتهم، فاللغة العربية آنذاك لم تكن لغة علم ومعرفة، وكانت محصورة في جزيرتها، ولكن اختلف الأمر بعد أن نزل القرآن الكريم وجاءت الدعوة الإسلامية معه لإقامة الدين، فأقبل الناس على تعلم اللغة العربية لغة القرآن، مما جعل من اللغة العربية لغة عالمية بين الأمم أجمعين، ولقد حوّل القرآن الكريم اللغة العربية أيضاً إلى لغة تعليمية ذات قواعد منضبطة، فاللغة العربية لدى العرب كانت من قبل على السليقة، ولم تكن تلك القواعد المعروفة اليوم موجودة لأنهم لم يكونوا بحاجة إليها، ولقد استقامت لهم لغتهم لما ذُهِبَ بهم إلى الصحراء لتعلم اللغة العربية النقية التي لم تشبها شائبة، ولكن لما اتسعت الفتوح، وانتشر الإسلام في بقاع الأرض، ودخل الكثير من الناس في دين الله، ظهر اللحن في لغة العرب، وذلك بسبب احتكاك العرب بالعجم، وضعفت اللغة مع مرور الأيام، وفشا اللحن في قراءة القرآن، وأدى ذلك لظهور قواعد النحو التي وضعها أبو الأسود الدؤلي، ومن ثمّ قام بضبط المصاحف بالشكل حفاظاً على قراءة القرآن من اللحن والخطأ.

كما أن القرآن الكريم نقل العرب من جفاء البداوة وخشونتها، إلى لين الحضارة ونعومتها، فتهذبت ألفاظهم، وتخيروا منها أعذبها، ونشأ فيهم علم البلاغة، ذلك أن القرآن الكريم قد انتهج في تعابيره أسلوباً له حلاوة، وعليه طلاوة، ويكفي في ذلك أن نجد الفرق شاسعاً بين الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي أو الأدب الجاهلي والأدب الإسلامي، ونعرف من خلال هذه المقارنة أن العرب استقوا من بحر القرآن الكريم الواسع، فأصبحوا يقتبسون من ألفاظه ومعانيه، ووضعوا بذلك علم البلاغة، متكئين بذلك على ما في القرآن الكريم من أوجه الإعجاز وبراعة التركيب.

و القرآن الكريم جعل من اللغة العربية لغة ثقافة وحضارة، حيث أن اللغة العربية قادرة على مواكبة كل عصر بما حوته معاجمها من كم هائل من الألفاظ والمشتقات، فهي لغة اشتقاق وترادف، إذ تتعدد الألفاظ فيها لمعنى واحد يحمل تغيراً في مراد الكلمة، أو قد يكون العكس فتتعدد المعاني فيها للفظ واحد على حسب سياق الجملة وموقع الكلمة فيها، فأهمية اللغة العربية تنبع من ارتباطها بكتاب الله عز وجل، حيث أنه بالفهم العميق للغة العربية يزداد التعمق أيضاً

في فهم كتاب الله وآياته الحكيمة، والوعي الدقيق لآيات القرآن، يجعل القلب يعي ويدرك بمدى أوسع الظواهر الكونية التي يدرسها علماء المسلمين، وربطها بتفسيرات تلتقي باكتشافات تصب في مجال تفسير آيات القرآن التي تتحدث عن الأكوان و ظواهر آياته الكونية، وتفسرها ألفاظ اللغة العربية بمفرداتها الدقيقة. عندما تكون معجزة القوم هي لغتهم، يكون التأثير عليهم نابع من معجزتهم التي يعتزون بها، وأقاموا لها أسواقاً وتباروا في ميادينها، وهذا ما حدث للعرب الذين كانوا يتباهون بفصاحتهم وبلاغتهم وبيانهم، فشاء الله عز وجل أن يكون التأثير عليهم منبثقاً من نافدة التأثير الذي اشتهروا به، وهو اللغة، حيث نزل القرآن بنفس الحرف والكلم والصوت فكان الأكثر بياناً وفصاحة، مما أعجز أقوام العرب جميعاً وهم أهل الفصاحة والبيان، فكانت لغة القرآن المعجزة للغة العرب، رغم أن اللغتين ناطقتين باللغة العربية الفصيحة، وبتالي ينبثق جلياً أن حفظ اللغة العربية ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالقرآن الكريم، كما أن للإسلام ودخوله في بقاع الأرض أثر آخر في نشر اللغة العربية، وذلك أيضاً مرتبط بالقرآن الكريم، حيث شرع الداخلون للإسلام في تعلم علوم الإسلام، وتلاوة القرآن الكريم الذي يتعبدون به لله عز وجل، فالقرآن الذي هذّب النفوس، وأنار الدروب، وألّف بين القلوب، وجمع الأمة على كلمة التوحيد، وأثر فيها أشد الأثر، تحدى بكلامه المعجز جميع البشر، وكان له الأثر الأكبر على بقاء اللغة العربية وانتشارها وإثراءِها وتفوقها، ولعل التدارس الخلّاق لكتاب الله سيعزز الذخيرة اللغوية، ومخزون المفردات والمعاني لدى الدارسين، وسيتم به تقويم اللسان العربي، و تخليصه من اللحن أثناء التعبير والكلام، ويجعل آفاق اللغة وإدراك أبعادها يزداد لدى الأجيال، وذلك بربطهم وتعليقهم بكتاب الله عز وجل، وبتالي فهمهم للغتهم واعتزازهم بها.

-6-

اللغـة العربيـة بين الأمس واليوم

إن اللغة في وصولها للمستمع تحتاج إلى الألفة و الدربة، فهو يأخذها ويتشربها سماعاً في سنواته الأولى، ويلتقطها من محيطه المتصل به كالرادار الذي يلتقط إشارات الهواء الصادرة، فتكون تلك الأصوات المتصلة إلى أذن المستمع نقية صافية كما أخذها، لا يشوبها اللحن أو الاعوجاج الحاصل في زمننا الحالي، فنجد أن الأسر في المجتمعات القديمة تحرص على إرسال أولادها إلى البادية، وإبعادهم عن الحضر الذي تجتمع فيه الأجناس المختلفة، لأنهم يدركون تماماً أن السنوات الأولى هي سنوات تعلم الكلام، فينشأ الطفل إلى سن الرابعة أو السادسة هناك، وقد قويت ملكته اللغوية في استيعاب الحروف كما هي، والنطق بها بمخارج صحيحة واضحة، وبطلاقة فطرية دون تكلف أو إطناب، ولذا وفي ذلك الزمان لم يحتج العرب لعلم النحو ولم يعرفوه، فهذا العلم المستحدث فيما بعد، جاء لضبط أواخر الحروف بالتشكيلات المختلفة التي لم تكن مستعملة في ذلك الزمان لأنها كانت في السليقة، وقد جبلوا على ضبطها بألسنتهم منذ نعومة أظافرهم. هذا الحرص لدى العرب الأوائل على لغتهم وافتخارهم بها، هو ما أعلا شأن اللغة وأعان المتكلمين بها على زيادة بيانهم وملكاتهم، حتى كانوا يستمعون إلى الأشعار الطويلة ويحفظونها من أول مرة أُلقيت عليهم، وهذه الحقيقة الماثلة تصرح بأن الطفولة هي سن تعلم اللغات والكلام، واللغة التي نتحدث بها نكتسبها من محيطنا، ونأخذ أصواتها الداخلة في آذاننا منها، حيث أن الفرد الذي ليس لديه مجتمع يقتبس منه لغته يكون غير قادر على التعبير، فليس لديه مفردات للكلام، وأسس للبنيان، وبالرغم من أن اللغة العربية من أقدم اللغات، إلا أن ألفاظها و حروفها مفهومة لدى مجتمعها في كل عصر، حيث أن اللغة التي كتبت منذ 1500 عام مفهومة لدى أبنائها إلى الآن، فهي لغة تتميز بالحياة و المرونة، عكس باقي اللغات التي تندثر أو لا تكون مفهومة، و نجد أن طريقة التلقين للغة ليست ذات جدوى، فلا بد أن يتغير أسلوب تدريس اللغة في المدارس حتى تكون أكثر فهماً و ممارسة لدى دارسيها، و لا بد من التحدث بها في الصفوف بأن تؤخذ كحصص شفوية، و بذا يكون التعبير عنها شفوياً أمراً ميسراً، و قد يكون في هذا دواء لما أصابها والسبات الذي تعيش فيه لدى أبنائها، فاللغة العربية

لغة تنبض بالحياة والانتعاش، و تحتاج لمن يعيش تفاصيلها و يمارس التحدث بها أثناء يومه، و هذا يجعلها سلسة سهلة الاستخدام لدى ابنائها، ويهدم الجدار الذي عمل على بنائه الإهمال والترك لها، لتعود وتنبض بالحياة في أثناء الكلام والحوارات و الأحاديث اليومية.

هذه السياسة الجديدة ستجعل للغة العربية عنواناً جديداً في المجتمع، لذا وجب على الجميع من حكومات وسياسات ودول وتعليم ومؤسسات إعلام وتكنولوجيا حديثة وغيرها.. أن يتكاتفوا ويتعاونوا للنهوض بلغتهم، و يجب أن تتضافر الجهود في البلاد العربية للعناية باللغة العربية، و حمل أمانة فن توصيلها للقارئ و المتعلم من علماء و أدباء و شعراء ورجال فكر، وأن يصبح التعامل باللغة العربية له قانون يسن من قبل الحكومات ويلزم به أبناء الوطن، ويتعاملون بها في مدارج أحاديثهم وفي تعاملاتهم الرسمية، ويكون التركيز الإعلامي عليها، كما يجب أن يتم توظيف التكنولوجيا لخدمة اللغة العربية، فالتكنولوجيا الحديثة أثّرت على جميع نواحي الحياة و الروابط الاجتماعية بين البشر، والعلاقات المختلفة لذا فإن تأثير اللغة العربية في التكنولوجيا أمر مفروض لابد منه، لذا فإن التحدي الذي واجه اللغة في هذا المضمار هو قدرتها على الانسجام والتوافق مع هذه التكنولوجيا التي ضربت أطنابها في جميع نواحي الحياة، إن اللغة العربية التي كان ارتباط بقائها قائماً على العرب المتحدثين بها، أصبحت اليوم تنقل ارتباطها بمتحدثها إلى التكنولوجيا الحديثة التي تعيشها اليوم، وتتعامل مع متغيراتها المتجددة في كل لحظة وحين، فكان لزاماً على العرب المسلمين خاصة، الذين حفظ الله لهم لغتهم العربية بحفظ كتاب الله الكريم، الذي جاء بلسان عربي مبين؛ استعمال التكنولوجيا الحديثة، حيث أن الظرف الحالي لا يمكن فيه التعايش والتواصل مع الآخرين، إلا عبر وسائل التواصل الاجتماعي، التي غزت البيوت والعقول وأثرت في الأجيال، وبخاصة سن الطفولة، فما يحصل للأسف هو أن الأطفال انشغلوا في هذه السن الحساسة والمهمة، والتي يستقبلون فيها مفردات اللغة المتعددة؛ بما يعرف بوسائل التكنولوجيا العصرية، من تلفزيونات وجوالات وأجهزة محمولة، والتي لا تراعي في بثها فصاحة اللغة، وبالتالي تقل فرصة التعبير باللغة وتتقاعس وتنحسر تدريجياً، وبعد سنوات من دراسة الطالب للغة العربية، يتخرج وهو قاصر عن ممارسة التحدث والكتابة بصورة صحيحة، ويعاني من فهم المقروء، فلابد من إعادة النظر في السياسات التعليمية في طرح اللغة وفن إيصالها لأجيال الغد، وبعدها نسلط الضوء على أسباب ضعفها، فالمدرسة تشترك مع وسائل الإعلام في ذلك، ولقد غزت اللهجات العامية ووسائل الإعلا،م بل زاد الأمر سوء بإقحام بعض العبارات والكلمات وحشرها في وسط الكلام أثناء الحوارات والبرامج المقدمة في وسائل الإعلام المختلفة، وإنما يدل ذلك على قلة اعتزاز العرب وقلة تقديرهم للغتهم

الأم، التي هي لغة عبادة، ولذا كان مما تأسى له النفس أن نهجر اللغة العربية وننساها، ولا نهتم بها من أجل زخرف كاذب من القول بأننا نساير التطور والتقدم، وكأن هذه اللغة التي انتقاها الله عز وجل من بين جميع اللغات لتحوي مفردات القرآن الكريم، بات التحدث بها عند أبناء جلدتها عيباً وعاراً يقلل من شأن كل عربي، فيجنح الناطقون بها إلى إضفاء صبغة تحررية، يرونها تضيف شيئاً من التقدير، بحشر مفردات الأجانب وسط كلامهم، ابتغاء العزة وارتفاع الشأن والتفاخر، ناسين أن ذلك يجعلهم تابعين للغرب، وتبعاً لذلك تنفرط سلسلة الهوية و تلحقها أمور شتى في حياتنا و في أفكارنا وحديثنا ومظهرنا وما يمثلنا كعرب مسلمين.

-7-

جمال اللغة العربية

إن جمال اللغة العربية يبدو جلياً في بنية الكلمة التي تدرس تفاصيلها في علم الصرف لنعرف أساس بنية الكلمة، ثم تتفرع منها العديد من المصطلحات والمفردات التي تصاغ بأساليب رصينة وأنيقة تتميز بالروعة والإبداع والترتيب والنظام، ثم تأتي بنية الكلمة لتنضبط بالحركات في أواخر الكلمات؛ فتحة أو ضمة أو كسرة أو سكوناً، و يكون ذلك عبر علم النحو، كما أن جمال اللغة يكمن في صوتياتها البديعة، وحروفها ذات المخارج الفصيحة بشكل جميل وناعم، فحروف اللغة العربية تستخدم جميع مخارج الفم تتابعاً منذ بداية الحلق إلى نهاية الشفاه، مروراً بالخيشوم، وصفات الحروف المتناغمة من جهر وإصمات وإطباق وهمس وغيرها تدندن بأعذب الصوتيات، وتعبر عن معاني أخرى للجمال والفن الموسيقي العذب الجميل، وتعتبر اللغة العربية بلا منازع لغة الشعر والأدب، يتعامل فيها الشعراء بالقوافي والسجع والمحسنات البديعية والألفاظ المتناسقة المتموسقة في سلم الصوتيات المتناغمة والمنسجمة مع بعضها البعض، واللغة العربية في عنفوانها المستمد من إرثها الحضاري التليد، الذي يتألق بعظمته كونه لغة القرآن الكريم؛ لغة لمجموعة كبيرة من الأدب والشعر الممتد عبر تاريخ العرب، فهي قادرة على التعبير عن مكنونات الصدر، وما تفيض به النفس من عاطفةٍ جياشةٍ، وإحساس مرهف بطريقة مباشرة وصريحة، ولكنها مغلفة بالجمال والسحر في الإيصال والبيان، كما أنها تتميز بالدقة فهي لغة علمية دقيقة يمكنها التعبير عن مختلف المواضيع والمجالات، وللغة العربية بصمتها التاريخية المتجذرة في الشعر العربي الفصيح، فقد كان للشعر دوره البارز في إثبات جمالياتها من خلال استخدامه المتفرد للألفاظ والمعاني، وكذا الصور البلاغية والتشبيهات، التي أعطت للمعاني كل بيان، وجعلته في أبهى صوره الرائعة والواضحة، فاللغة العربية بكل مايكتسيها من جمال وإجلال، ومهابة وفصاحة وبيان، قادرة على التعبير عما يدور في النفس من أفكار ومشاعر وعواطف بدقة متناهية، وما تزال تفشي أجزاء من أسرارها المدفونة في عمق كنوزها الثمينة، التي لا يستطيع أن يدركها إلا من أستضاء قلبه بفهم علومها واقتباس معانيها، ولعل السر في ذلك تلك الفصاحة والبلاغة التي تميزت بها اللغة العربية وتجملت

بها، ويندرج تحت علم البلاغة ما يعرف بعلم البيان وعلم البديع وعلم المعاني، وكلٌ يدور في عوالم البلاغة التي توصل المعنى للقلب في أحسن صورة من اللفظ، وفي تلك العوالم نبحر بما تحويه من استعارة وتشبيه ومجاز وكناية، فندرك علم الوصول إلى المعنى ومطابقته لمقتضى الحال مع حلل من الفصاحة والبيان، واللغة العربية بكل ما تتضمنه من حروف صوتية جميلة ناعمة وسلسة، وما تتميز به من تلاعب وتنسيق للحروف والأصوات، وكأنها تكوّن بذلك نغما موسيقيا جميلاً؛ تتألق أيضاً بجمال خالد مع مرور الأيام، حيث أن جمالها الخالد ينبع من كونها لغة القرآن الكريم، ولغة الشعر والأدب، وإرثها الحضاري الذي يتلألأ في سماء الماضي مشرقاً على الحاضر وممتداً إلى المستقبل بكل ما يحويه من جمال وإبداع ورقي وتقدم، ويدور ذلك الجمال أيضاً بما تحتويه من مفردات مشتقة من جذور مختلفة تعطيها القدرة على التعبير عن جميع الأفكار والمفاهيم بأسلوب لغوي جميل ومبهر . ولو تحدثنا عن جمال الحرف العربي فإننا سنتطرق إلى باب آخر من أبواب الجمال والسحر، فالحروف العربية وتصميمها وأشكالها، تعبر عن أسلوب فني يختص به الحرف العربي دون غيره، ولهذا يمكننا القول بأن جمال اللغة ينبع من تراكيبها وتناغمها وأصواتها، وألفاظها ومعاني كلماتها، وأشكال حروفها، وإرثها الحضاري والثقافي الرفيع، ويزكي ذلك كله بأنها تشرفت بأن تكون لغة لديننا وقرآننا الكريم المعجز في كل حرف من حروفه.